اللسان الحسّاني ومظاهر التواصل الثقافي

مقاربة أنثروبولوجية بالجنوب الغربي الجزائري

The Hassani dialect and aspects of cultural communication

Anthropological approach in the southwestern Algerian

أ.د. مباركة بلحسن *

قسم علم الاجتماع – جامعة وهران2 محمد بن أحمد(وهران . الجزائر)

Prof. Dr. Mebarka Bellahcen

Department of social sciences - University of Oran 2 Mohamed Ben Ahmed(Oran-Algeria)

bellahcen_mebarka@yahoo.fr

تاريخ استلام المقال:2020/11/06	تاريخ القبول: 2020/11/27	تاريخ النشر:2020/12/15

ملخص

تعتبر الجزائر قارة لما تحتويه من تنوع سوسيوثقافي لسكانها من شمالها إلى جنوبها ومن غربها إلى شرقها، ويعتبر الجنوب الجزائري البوابة الرئيسية للعلاقات والتبادلات مع البلدان الإفريقية. ومن بين المجموعات التي برزت في أقصى الجنوب الجزائري، وسميت نسبة إلى اللهجة المستعملة بين أفرادها، نجد المجتمع "الحسّاني"، ونقصد به تلك المجموعات البشرية الناطقة باللهجة الحسانية. وهي مزيج بين اللغة المعقلية والأمازيغية. سنحاول من خلال هذه الدراسة أن نركز على "اللسان الحساني" في الجنوب الغربي الجزائري، ونبحث في أصول هذه القبائل والعشائر، بالإضافة إلى محاولة فهم مدى تأثير عدة عوامل (الهجرات، المدارس القرآنية، التجارة والحروب) على انتشار اللهجة الحسانية في نطاق لابأس به من الصحراء الإفريقية الكبرى عموما، والجنوب الغربي الجزائري على وجه الخصوص.

الكلمات المفاتيح: لهجة؛ حسّانية؛ أنثروبولوجيا؛ تواصل؛ الجنوب الجزائري.

Abstract

Algeria is considered a continent because of the sociocultural diversity it contains for its population from north to south and from west to east, southern Algeria is the main

* **المؤلف المرسل:** مباركة بلحسن **البريد الإلكتروني:** bellahcen_mebarka@yahoo.fr

gateway for relations and exchanges with African countries. Among the groups that have emerged in the far south of Algeria, and it is named relative to the dialect used among its members, and it is named relative to the dialect used among its members, we find the Hassani community, by which we mean those human groups that speak the Hasani dialect. It is a mixture between the Maqil and Berber language. Through this study, we will try to focus on the "Hassani dialect " in the Algerian southwestern, and examine the origins of these tribes and clans.

Keywords: Dialect ; Hassani; Anthropology; Communication ; Southern Algeria.

مقدمة

تميزت القارة الإفريقية بشساعة صحرائها، خاصة تلك الموجودة في الشمال، بحيث تستحوذ على أكثر من تسعة ملايين كيلومتر مربع، هاته الصحراء الكبرى والمتنوعة بالشعوب، التي استقرت بها وأثرت على ملامحها وتأثرت بها، تتميز بخصوصية جغرافية، ثقافية واجتماعية، كما تعاقبت عليها عدة حضارات وثقافات وألسنة.

تعتبر الصحراء الإفريقية مجالا واسعا للبحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية لتنوع التركيبة البشرية التي تعيش عليها وتميزها بألسنة ولغات لا تعد ولا تحصى، وما يزيدها ثراء ذلك التنوع الثقافي المذهل (نمط العيش، الملبس، العمران، النظام الاجتماعي والسياسي).

الجزائر لوحدها شبه قارة لما تحتويه من تنوع سوسيو-ثقافي لسكانها، من شمالها إلى جنوبها ومن غربها إلى شرقها. فالصحراء الجزائرية واسعة وشاسعة بمساحتها وجغرافيتها والمجموعات البشرية التي تعيش فيها، لذلك يعتبر الجنوب الجزائري البوابة الرئيسية للعلاقات والتبادلات مع البلدان الإفريقية.

ومن بين المجموعات التي برزت في أقصى الجنوب الجزائري، وسميت نسبة إلى اللهجة المستعملة بين أفرادها، نجد المجتمع "الحسّاني"، ونقصد به تلك المجموعات البشرية الناطقة باللهجة الحسّانية. وبالأخص مجتمع "البيضان".

في أصل تسمية "البيضان"، يقول الباحث محمدو محمدن أمين أنه "يعود إطلاق تسمية البيضان أو البياضين على سكان هذا الجزء من الصحراء الإفريقية الكبرى – حسب علمنا إلى الرحالين والجغرافيين العرب في القرون الوسطى وذلك لتمييز هؤلاء السكان ذوي البشرة السمراء (الضاربة أحيانا إلى البياض)، عن بقية سكان المنطقة الزنوج ذوي البشرة السوداء...هي تسمية تدل

 E-ISSN- 2773-2886 / ISSN-2773-2894

عموما عند استخدامها من الفرنسيين على الحيز الجغرافي الممتد من نهر السنغال جنوبا إلى المحيط الأطلسي غربا ومن جنوب الجزائر والمغرب شمالا إلى نهر النيجر شرقا"(محمدن أمين، 2016، ص35).

لكن الباحث إبراهيم الحيسن يعتبر أن مجتمع البيضان "هو الذي يربطه كثيرون ببيض البشرة الناطقين بالعربية (اللهجة الحسانية)، والفرنسيون هم من أطلقوا تعبير 'دول المور' Etats maures المحاذية للنهر في حديثهم عن الوجه البحري للبلاد الموريتانية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، تعني المور أيضا السواد عند الإسبان، لا سيما في حديثهم عن الفن الموريسكي في إشارة إلى العرب السمر الذين كانوا يتواجدون ببلاد الأندلس. كما استعمل ابن بطوطة المصطلح نفسه (البيضان) في مدوناته الرحلية والجاحظ عندما ألف رسالة بعنوان : 'فضل السودان على البيضان'"(الحيسن ، 2011، ص9).

فاللهجة الحسّانية هي من أهم المقومات التي يتشبث بها هذا المجتمع لإثبات هويته وصهرها، والأهم في ذلك أنّ أفراد هذا المجتمع واعون بأهمية ودور اللغة في صهر الهوية والحفاظ على ملامحها الحسّانية، حتى أنّ البعض منهم ذهب إلى الدفاع عن عروبة هذه المجموعة عبر الدفاع عن أصول اللغة الحسّانية إلى اللغة العربية.

لكن اللهجة الحسّانية هي مزيج بين اللغة المعقلية والأمازيغية، هذا الإمتزاج الذي يضم العديد من المفردات الأمازيغية، خاصة إذا رجعنا إلى الطوبونوميا وأسماء القبائل والتي تعتبر من بين أهم مظاهر التواصل الثقافي الحساني الأمازيغي، بالرغم من رفض القبائل الحسانية لوجود هذا الإمتزاج.

لذلك نحاول من خلال هذه الورقة أن نركز على "اللسان الحساني" في الجنوب الغربي الجزائري، والبحث في أصول هذه القبائل والعشائر، بالإضافة إلى محاولة فهم مدى تأثير عدة عوامل (الهجرات، المدارس القرآنية، التجارة والحروب) على انتشار اللهجة الحسّانية في نطاق لا بأس به من الصحراء الإفريقية الكبرى والجنوب الغربي الجزائري بالخصوص.

1. ماهية اللسان الحسّاني :

ترتبط اللغة بالثقافة والهوية الجماعية للجماعات البشرية، لذلك يعتبر علماء الأنثروبولوجيا اللغة المفتاح الرئيسي لفهم التركيبات السوسيو-ثقافية لمختلف المجتمعات، إن الأنثروبولوجي يحتاج إلى علم اللسانيات لفهم عناصر اللغة وتنوعها، ولعل الأنثروبولوجي كلود ليفي ستراوس أكبر دليل على هذا التقاطع بين العلمين خاصة من حيث المناهج، لأنه حاول أن يطبق مبادىء نظام اللغة والعناصر التي تتشكل منها الكلمات بمبادىء نظام القرابة.

يحاول علم الإجتماع اللغوي فهم وتفسير الطبيعة الإجتماعية للغة وذلك من خلال معرفة أصولها وسلطتها داخل المجتمعات البشرية عبر العصور. يعتبر فيركلو نورمان، عن الزواوي بغورة، أن "اللغة جزء من المجتمع...ويعني ثانيا أن اللغة صيرورة اجتماعية. وثالثا أن اللغة صيرورة مشروطة اجتماعيا، أي مشروطة بالجوانب غير اللغوية من المجتمع"(بغورة ، 2002، ص53-57) ، بمعنى أن اللغة شكل من أشكال الممارسة الإجتماعية.

هل هناك علاقة بين انتشار لغة معينة وهيمنتها في فضاء معين، وبين السلطة السياسية والدينية ؟

كيف يمكن أن نفهم السيرورة التاريخية لانتشار لهجة أو لغة معينة في مجتمعات لم توثق لتاريخها كما ينبغي بل اعتمدت على الشفوية ؟ وما هي الإمكانات المنهجية والعلمية والإبستمولوجية التي تمكننا من مقاربتها بشكل سليم وواضح ؟ ما هي العلاقة بين انتشار لهجة معينة وهيمنتها في فضاء واسع وشاسع وبين أصول المجموعات البشرية الناطقة بها ؟ ما هي الإستراتيجيات التي اعتمدت عليها تلك المجتمعات لفرض لهجتهم من بين العديد من اللهجات التي كانت منتشرة آنذاك ؟

انتشر اللسان الحساني خلال القرن الحادي عشر ميلادي، حسب هذه الرواية، بالتقريب إثر مجيء قبائل بني حسان المعقلية من بلاد المشرق إلى المجابة الكبرى من بلاد الغرب الإسلامي، أين شكل إنتشار هذا اللسان، من وادي نون شمالا إلى حدود نهر السينغال جنوبا ومن المحيط الأطلسي غربا حتى صحراء الجوف وأزواد وتندوف شرقا، حدثا لغويا مهما خاصة بالنسبة لإعادة صياغة الوضعية اللغوية وخريطتها بالمجال.(هباد و تمكليت، 2013، ص7-8)

أظهرت دراسات مهمة أن اللغة الحسانية هي مزيج من 80 بالمئة من اللغة العربية و 20 بالمئة من اللغة الأمازيغية خاصة إذا ما تحدثنا عن الطوبونوميا وأسماء الأدوات المستعملة في البيت الحساني وحتى أسماء أغلبية القبائل الحسانية.

أما الأستاذ محمد أرجدال (بويزكران) فإنه يكتب : "اللغة الحسانية : عرفها أحمد بن لمين الشنقيطي في كتابه : الوسيط في أدباء شنقيط (بأنها كلام حسان وكلام العرب وهي لغة بعضها عربي ظاهر إلا أن تسكين المتحرك كثير فيه وبعضها لا يعرف لها اشتقاق وليس مأخوذا من اللغات البربرية لأنه لا يوجد فيها) ، نعم الحسانية مزيج من اللغة العربية المعقلية ومن الأمازيغية التي يحاول الشنقيطي نفيها لأن العديد من الباحثين في اللسانيات وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا أكدوا هذا الامتزاج الذي يضم العديد من المفردات الأمازيغية وكذا الظواهر الفونولوجية والتركيبة."(أرجدال، http://tawiza.net)

يواجه الباحث عند محاولة مقاربته للسان الحساني عدة صعوبات بسبب عدم إهتمام المختصون في العلوم الإجتماعية والإنسانية به، خاصة بالجزائر، وهذا ما يفسر الشح في المصادر والمراجع والكتابات التي تؤرخ لهذا اللسان، فيجد الباحث نفسه يتخبط بين بحوث مشتتة ومتفرقة بين البلدان الإفريقية والمغاربية والعربية التي تتواجد بها المجموعات الناطقة باللهجة الحسانية. لذلك حاولنا أن نركز على الدراسات التي أجريت على المجموعات الناطقة باللهجة الحسانية في موريتانيا والمغرب والصحراء الغربية لأنها تؤسس لتاريخ موحد للسان الحساني المناطق الصحراوية التي كانوا يعيشون فيها أو قريبة منهم، ولأن تلك المجموعات كانت تربطها علاقات القرابة، المصاهرة، التجارة ونشر تعاليم الإسلام .

تعتبر دراسات كل من بيار بونت Pierre Bonte وعبد الودود ولد الشيخ Abdel Wedoud Ould Cheikh وبعض الباحثين الغربيين من بين أهم البحوث التي إهتمت بالمجتمعات الناطقة باللهجة الحسانية أو ما يعرف بمجتمع البيظان.

ونشير كذلك إلى مساهمة كل من الباحثين حمادي هباد وسويدي تمكليت والمتمثلة في تنسيق كتاب جماعي يضم عدة مداخلات من الندوة العلمية الأولى حول الحسانية والتي نظمها مركز الدراسات والأبحاث "مشاريع" بشراكة وكالة الجنوب وجمعية الباحثين الشباب للدراسات والأبحاث الصحراوية بمدينة آسا بجنوب المغرب الأقصى يومي 23 و24 ديسمبر 2011، تحت شعار "الحسانية : بين الواقع الشفهي والبحث العلمي".

تكمن أهمية هذا الكتاب الجماعي في محاولة فتح نقاش علمي جاد حول أهم الأطروحات التي تساهم في فهم واقع هذا اللسان وحقيقة انتشاره جغرافيا بمجال الصحراء وأهم أسبابه الاجتماعية، الثقافية، السياسية والاقتصادية.

لقد أثار الباحث سويدي تمكليت جدلية مهمة تستحق التمعن والاهتمام وهي "جدلية الناسب والمنسوب بين اللسان والمجموعة الناطقة بها"، لأن هذه العلاقة أرقت العديد من الباحثين ومن بينهم صاحب هذا المقال، فهل اللهجة الحسّانية منسوبة إلى بني حسان؟ أم أن بني حسان هم المنسوبين إليها ؟ (هباد و تمكليت، 2013، ص28-29)

E-ISSN- 2773-2886 / ISSN-2773-2894

رأينا من رأي الباحث تمكليت حين شكك في نسب اللسان الحساني إلى العرق أو الإثنية، لأن الناظر في العشيرة اللغوية المتكلمة بهذا اللسان، حسب رأيه، "يدرك بشكل واضح وجلي أنهم من حيث الأصول العرقية لا يرجعون إلى أصل واحد (النسب إلى حسان وأولاده) بل هم عبارة عن أخلاط بشرية متعددة ومتباينة الإثنيات، وهذا الأمر تؤكده جملة من الأبحاث والدراسات نضرب مثالا منها لابن خلدون الذي أورد أن انتشار (بني حسان (المعاقلة) بالمنطقة وبسط نفوذهم على المجال هم قلة، وإنما كثروا بمن اجتمع إليهم من القبائل من غير نسبهم"(هباد و تمكليت، 2013، ص24).

نفس الباحث يقف على اتجاهين أساسيين بالنسبة لتأصيل نسبة الحسانية لدى الباحثين : "الإتجاه الأول : نسبها إلى قبائل بني حسان التي تعود دمويا إلى جعفر بن أبي طالب، وهم 'بنو حسان بن المختار بن محمد بن عقيل بن معقل بن موسى بن الهداج بن جعفر الأمير بن إبراهيم الأعرابي بن محمد الجواد بن علي الزينبي بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب' وهو رأي متواتر بكثرة(الأنصاري، ص4) و (هباد و تمكليت، 2013، ص33). الإتجاه الثاني : نسبها إلى القائد والفاتح العربي الشهير 'حسان بن النعمان' وهو رأي قليل وغير مشهور"(هباد و تمكليت، 2013، ص26 - 27).

والإتجاه الثاني هو ما نجده بكثرة في الجنوب الغربي الجزائري خاصة بتندوف، فيرى البعض أنه كانت هناك دولة صنهاجية(بونت، 2015، ص17)[1]، قبل ظهور الحسانية في المنطقة، تقتسمها قبيلتان تحتلان المحيط الجغرافي لهذه المنطقة بأكمله ، وهما قبيلتي *أزناقة* و *أزير*.

العديد من الباحثين في اللسانيات وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا أكدوا هذا الامتزاج الذي يضم العديد من المفردات الأمازيغية وكذا الظواهر الفونولوجية والتركيبة وكمثال :

- في العربية : الشجاع
- في الحسانية : افكراش
- في الأمازيغية : أفكروش

[1]. "المجال الثقافي واللغوي المتمثل في "تراب البيظان" ...في هذا المجال يعزى غالبا إلى المرابطين دخول الشعوب الصحراوية في التاريخ كما إلى الدور الحضاري، فهم المسؤولون تاريخيا عن أسلمة البلاد وهم المؤسسون للنظام الإجتماعي القبلي والمنزلاتي...القبائل البربرية الصنهاجية...قبائل كانت تسكن الصحراء الغربية قبل القرن الحادي عشر 11 وحتى قبل مجيء الإسلام، إن حضور تلك القبائل معلوم حتى أيامنا هذه من خلال الأسماء ذات الدلالة الإثنية مثلا أو من خلال إدعاء الأصول القبلية التي تنتمي إلى أسماء أعلام (تحيل إلى لمتونة خاصة...)، إن مصادر هذا التاريخ هي أقل تنوعا وأقل شهرة من تلك التي تعتمد عليها الرواية المغاربية فيما يتعلق بالمرابطين".

E-ISSN- 2773-2886 / ISSN-2773-2894

كما ذكر أنه من مظاهر التواصل الثقافي الأمازيغي الحساني ، الطوبونوميا : إذ تفيد الدراسات الطوبونومية على أن معظم أسماء الأماكن ذات أصول أمازيغية وكذا أسماء القبائل وبطونها)."(أرجال، http://tawiza.net/)

ويمكننا أن نشير إلى بعض أسماء هذه القبائل مثل : أولاد تيدرارين وآيت بلقاسم والرقيبات.

لكننا نجد ، ومن جهة أخرى ، أن البعض من أفراد المجتمع الحساني ، يرفض أن يكون هناك أي اختلاط مع أي لهجة بربرية أخرى ، والدليل على ذلك قول الشاعر البخاري ولد الفيلالي ولد بارك الله في قصيدته الطويلة المسماة "*أمطالع لمزاليق*" عن اللهجة الحسانية :

لُغَةْ حَسَّانْ بْلا سْتَنْزيقْ لُغَةْ عْرَبْ نَحْنَ لاَحْنينْها

ومعناه أن "لهجة بني حسان بدون *ستنزيق* أي بدون الاختلاط مع أي لهجة بربرية، هي لهجة (لغة) عرب ، قمنا نحن (العرب) بتلحينها ، أي بإنشائها والنطق بها ، مما يدل على هويتنا وثقافتنا وحضارتنا." (الكتاب، 1999، ص10)

هذا إن دل على شيء فإنما يدل على رفض المجتمع الحساني لاختلاط لغته بأي لغة أخرى ، ومنه إحساسه وإدراكه بأهمية اللغة بالنسبة لهوية وحضارة الشعوب. فلكل هويته وثقافته الخاصة به ،كما نستنتج أيضا أن المجتمع الحساني يرفض أي امتزاج أو تثاقف مع أي كان لأنه من المجتمعات المنغلقة نسبيا.

وتمتاز اللهجة الحسانية بمرونة نطقها وعدم السرعة والمحافظة على سلامة مخارج الحروف المعروفة في القرآن الكريم بحيث ينقط كل حرف ويخرج من مخرجه الصحيح.

وأهم ما يلفت نظرنا كباحثين في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا هو الدور الذي تستطيع اللهجة الحسانية أن تلعبه في إعطائنا النظرة الخاصة للمجتمع فيما يتعلق بموقفه من الجسد ، وهوالمجال الذي نهتم به في بحوثنا الحالية.

وتوجد كلمات في اللهجة الحسانية يوجه بها الحديث إلى الانسان دون الحيوان ، وأخرى إلى الحيوان دون الإنسان ، وكلمات يوجه بها الحديث إلى الرجل دون المرأة ، وأخرى إلى المرأة دون الرجل. ونعطي أمثلة عن ذلك فيما يلي:

- عند *الحمل* : بالنسبة للمرأة ، يقال : أمرة *حامل* أو *أبحقها* أو *أثقيلة* ، أما بالنسبة لأنثى الحيوان فيقال : ناقة *أمقرب*.

E-ISSN- 2773-2886 / ISSN-2773-2894

- عند الولادة : عندما تلد المرأة ، يقال بالحسانية أنها نفسة وأبرات ، أما أنثى الحيوان فيقال ولدت.

عند إلقاء التحية : بالنسبة للرجل ، يقال أش كيفاك بنصب الفاء ، ويرافقها خشونة في الصوت ، أما بالنسبة للمرأة فيقال لها أش كيفك بكسر الفاء كما يرافقها رقة في الصوت.

2. مجتمع البيظان وسيطرة اللسان الحساني :

يعتبر بيار بونت أن مجتمع البيظان هو تلك المجموعات العربية المتواجدة في الصحراء الغربية، والتي ظهرت في نفس الوقت الذي هيمنت فيه اللغة والثقافة العربية على تلك المنطقة، وذلك بداية من القرن السادس عشر والسابع عشر، هذه السيرورة التي كانت، حسبه، نتيجة للفتوحات عن طريق القبائل العربية الهلالية أو نتيجة لسيرورة عملية تثاقف معقدة والتي تكون قد رافقت التحولات الإجتماعية والسياسية لمجتمع بربري اللغة كان قد أسلم من قبل(Bonte, 1991, P141).

يضم مجتمع البيظان ثلاث فئات : فئة الأمراء والمحاربين أو بني حسان (أهل الشوكة)، فئة الزوايا وفئة الغارمين أو أزناكة أو اللحمة.

فحسب الباحث فيليب مارشزين فإن سنة 1674 تعتبر سنة انطلاقة تأسيس التنظيم الإجتماعي لمجتمع البيظان والذي يعتبر التعارض الشهير بين القوة العسكرية (العرب أو بني حسان) والزوايا (البربر) مكملا له، فهذه السنة، حسب رأيه، انتهت بحرب 'شر ببه' والتي نجم عنها إنتصار بني حسان نهائيا عللا البربر(مارشزين ، 2014، ص24)[1].

[1]. يقول فيليب مارشزين "لم يكن إنتصار بني حسان كاملا وإذا كان تفوقهم أكيدا على المسنوى العسكري والسياسي...إلا أن السلطة الروحية والأخلاقية بقيت غير مهزومة وهي سلطة الزوايا، حاملي القيم الدينية، وقد استمروا حتى الفترة المعاصرة في بسط قوتهم الزمنية".

E-ISSN- 2773-2886 / ISSN-2773-2894

إن أغلب الدراسات التي اهتمت بمجتمع البيظان تجمع على نقطة أساسية وهي العلاقة الجوهرية بين هيمنة اللهجة الحسانية وسيطرتها على المجال الصحراوي وبين الأسلمة العميقة للمجموعات البربرية بالإضافة إلى قدوم قبائل بني حسان إلى الصحراء الغربية بداية من القرن السابع عشر ميلادي (روايات أخرى تذكر القرن الرابع عشر، وأخرى تذكر القرن الحادي عشر)، هذه الأخيرة التي دخلت على مجموعة صنهاجة(الحيسن ، ص10)[1] وسيطرت عليها وحولتها إلى شبه رعية لها. فلقد ساهمت التجارة عبر الصحراء ونشر الإسلام في بسط المجموعات الحسانية سيطرتهم على المجموعات الأخرى.

اعتمدت القبائل المعقلية والحسانية على إستراتيجية الشكل الجينيالوجي، حسب رأي بيار بونت، الذي يحاول أن ينظم ما اعتبر أنه 'فتح عربي' لفضاء غرب الصحراء للسيطرة السياسية والعسكرية وحتى الاجتماعية، وهو ما أسماه 'التأريخ الظاهري' للوقائع، هذا الأخير يعتبره نوع من التأسيس لعروبة المجتمع البيظاني، العروبة التي تأكدت من خلال اعتماد لهجة حسانية تنسب للغة العربية وللقبائل الناطقة بها، وذلك بإبراز عروبتها الجنيالوجية التي لا تستند فقط إلى الأصول المعقلية بل إلى الشريفة والأنصارية والقرشية، وذلك بالاعتماد على إستراتيجية طمس التلاقي المكثف ما بين العناصر البربرية والعربية التي نشأ منها هذا المجتمع(بونت ، ص18).

فالقبائل الحسانية، والتي تتشكل من الأمراء والمحاربين، تعتبر الجناح العسكري للأرستقراطية البيضانية، وهي الفئة المسيطرة داخل هذا النظام، إن مجتمع "البيضان" يتميز بنظام حكم أوليغارشي (أي أنه نظام ذو علاقة بحكم الأقلية) (محمدن أمين، 2016، ص55) ، وهذا ما يفسر سرعة انتشار اللسان الحساني وهيمنته على اللهجات الأخرى في هذا المجال الصحراوي المتعدد الإثنيات[2].

[1]. "لقد تشكل مجتمع 'البيضان' من اندماج مجموعتين كبيرتين، قديمة من شعب صنهاجة الملثمين وجديدة من قبائل بني حسان العربية "الهلالية"، مع نسب قليلة متفاوتةالتأثير، بعضها من أسلاف البربر الأولين كالجرمنت 'أغرمان'، وبعضها الآخر من الوندال، والبربر المتهودين وأيضا من الأحباش 'الكوشيين' أسلاف 'الحراطين'، وأصل تسميتهم بربري، إحراضن، الخلاسي، الهجين من أب بربري وأم حبشية أو العكس. وكذا من بربر الجرمنت (أغرمان) والكثير من أسر الحراطين من أصول أغرمانية-لوبية امتزجت مع الأحباش في الحضارة الكوشية".

[2]. وهذا ما لاحظناه في زيارتنا الميدانية لنواكشوط (موريتانيا) السنة الماضية(في إطار بحث ميداني أنثروبولوجي معمق حول مجتمع البيضان)، فبالرغم من تعدد الألسنة في المجال الموريتاني فلازالت اللهجة الحسانية تفرض سيطرتها بالمقارنة مع اللهجات الإفريقية لأن قبائل بني حسان وقبائل الزوايا لازالت تفرض سيطرتها السياسية والإقتصادية.

E-ISSN- 2773-2886 / ISSN-2773-2894

يعتقد الباحث الموريتاني محمدو محمدن أمين أن طرد الموريسكيين من غرناطة قد ساهم مساهمة كبيرة في زيادة عدد السكان البيضان بالصحراء، والذين كانوا يعتمدون على التجارة كإستراتيجية للسيطرة على هذا الفضاء، وبالأخص تسويق الملح، الصمغ العربي، الذهب، ريش النعام، التمور، الجلود والعاج(محمدن أمين، 2016، ص42 ، 54).

يؤكد الأنثروبولوجي الموريتاني عبد الودود ولد الشيخ على أن "النظام القبلي الذي يتحكم في العلاقات أو الروابط بين الأفراد والجماعات داخل مجتمع البيضان (société maure) ، يظهر من خلال التمييز حسب المكانة statutaire بين قبائل حسان (المحاربين)، قبائل الزوايا (المرابطون) وقبائل التابعة أو الدخيلة (لحمة أو ازناكة)"(Wedoud, P201).

استطاعت القبائل الحسّانية السيطرة على مجال واسع من غرب الصحراء الكبرى بالاعتماد على نظام أوليغارشي يعتمد على احتكار السلاح والدين، وهذا ما جعل هذه القبائل تسيطر سياسيا واجتماعيا وثقافيا.

دخول القبائل الحسّانية على الجماعات الصنهاجية وسيطرتها على المجال الصحراوي جعلها قادرة على الدخول في تحالفات مع قبائل الزوايا، وذلك من خلال الاعتماد عليها في تعليم اللغة العربية ونشر تعاليم الإسلام للسيطرة على أكبر قدر ممكن من القبائل الإفريقية بالاعتماد على سياسة احتكار التبادلات التجارية.

حسب محمدو محمدن أمين فإن قبائل الزوايا(محمدن أمين ، ص57) هي التي تشرف على تحصيل ونشر المعارف العربية الإسلامية وممارسة التجارة والتنمية، بينما تعيش القبائل الحسّانية "في العادة على الصيد البري وعلى المغارم والإتاوات التي يفرضونها على الآخرين، إذ أنهم يأنفون من ممارسة الأنشطة الأخرى كالزراعة والرعي والتجارة، معتبرين أن مثل هذه الأعمال مخلة بمكانتهم الإجتماعية" (محمدن أمين ، ص55).

يعتبر مجتمع البيضان من المجتمعات التي تشدد على بقاء كل فرد في زمرته الاجتماعية، لأن الاختلاط بين هذه الزمر أو الطبقات الاجتماعية يبيح الفوضى والغوغاء، كما يبيح اختلاطا من المتعذر التحكم فيه. فالحفاظ على المكانة الاجتماعية بالنسبة للقبائل الحسّانية مهم جدا للحفاظ على سيطرتها الثقافية، الاجتماعية، السياسية والاقتصادية على الفضاء الذي تعيش فيه.

3. القبائل الناطقة باللهجة الحسانية بتندوف ونظامها الإجتماعي :

المجتمع التندوفي من المجتمعات الصحراوية الحسّانية مثله مثل المجتمع الموريتاني وجنوب المملكة المغربية والصحراء الغربية ، ولا يمكن فهم وضع اللهجة الحسّانية في الفترة الراهنة بدون معرفة دقيقة ومعمقة لأهم القبائل، التي تصاهرت مع القبائل المذكورة سابقا (تجكانت والرقيبات)، مثل قبيلة الشعانبة والشراقة، لأن عميلة التثاقف بينهم كانت واسعة ومهمة، وبالتأكيد سيكون لها أثر مهم على اللهجة الحسانية لأنها اللهجة التي لازالت تفرض مكانتها من بين اللهجات الوطنية الأخرى، خاصة في مدينة تندوف.

والإنسان التندوفي بطبيعته هاو للشعر وناطق في معظمه باللهجة الحسانية ، وهي من اللهجات العربية، تتكون بنسبة 80 بالمئة من المفردات العربية مثل : *أشطاري* ، *ياك العافية* ، *ياك الصحة* ، *ماريتوباس* ، الخ .

وتقطن بالمنطقة مجموعتان رئيسيتان بالإضافة إلى الغنانمة والشعانبة ، وهما قبيلتا *تجكانت والرقيبات*. و تعتبر قبيلة تجكانت من القبائل الأولى التي سكنت المنطقة وبنت وشيدت فيها. وهي من أكبر قبائل لمتونة، ويقال أنها شكلت ربع جيش المرابطين ، ولقد عدد "المختار بن بونا أبناء جاكن الأبر في الأبيات التالية :

أبناء جاكن الأبر أثناء من بعد عشر فلهم نظمنا
يوسف أعمر قلال رمظان إبراهيم يعقوب اتفاق موسان
بيج وابن زلمط وناصر دوشر لذاك قرري وحرري"(النحوي2004)[1]

وهذه القبيلة من القبائل المحافظة ، حيث أن المرأة تملك مكانة وسلطة معتبرة لكن داخل بيتها فقط.

أما اسم قبيلة الرقيبات(Caratini, 1989, P9)[2] فإنه يرجع إلى جدهم سيد أحمد الرقيبي ، الذي سمي بالرقيبي بسبب حادثة تعرض لها عند نزول أمطار أحدثت فيضانات. فصعد سيد أحمد

[1]. خليل النحوي، **جمعية الثقافة والعلوم الإسلامية**، تحصلنا على نسخة من هذا النص من طرف الشيخ الطاهر لحبيب، بتندوف، سنة 2004.

[2]. « Lorsque les forces françaises occupent l'Adrar mauritanien, en 1905, et regardent vers le nord, elles sont arrêtées par un espace désertique immense et inconnu, sur lequel une tribu bédouine finit à peine d'instaurer sa suprématie : les Rgaybat. Tel Ets le nom des descendants du Sid Ahmed ar-Rgaybi, saint

فوق مرتفع يقال له باللهجة الحسانية "رقيب" أو "رقيبة" وتعني المرتفع. ويوجد بالفعل هذا المرتفع في منطقة واد الدرعة ، وهي منطقة محاذية للمغرب.

وينقسم أبناء سيد أحمد الرقيبي إلى اثني وعشرين عرشا يصنفون في قسمين : *أرقيب القاف وأرقيب الكاف* بسبب وضع علامات وحرفي القاف والكاف على الماشية.

والرقيبات من القبائل التي سكنت المنطقة منذ زمن بعيد، وكانت لها مساهمة معتبرة في إثراء الماضي والحاضر الثقافي للمنطقة، كما أعطت مكانة اجتماعية معتبرة للمرأة في كافة مجالات الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

فالمجتمع الحسّاني من المجتمعات التي تشدد على بقاء كل فرد في زمرته الاجتماعية، لأن الاختلاط بين هذه الزمر أو الطبقات الاجتماعية يبيح الفوضى والغوغاء، كما يبيح اختلاطا من المتعذر التحكم فيه.

النظام الاجتماعي لهذه القبائل يختلف من منطقة إلى أخرى، فالقبائل الحسانية التي تقطن بالجنوب الغربي الجزائري تختلف عن تلك التي تعيش بموريتانيا والصحراء الغربية وجنوب المغرب، لذلك سنحاول أن نخصص هذا المحور للنظام الاجتماعي الخاص بالقبائل الحسّانية أو بتعبير أدق "القبائل الناطقة باللهجة الحسّانية"، لأنه كما ذكرنا سابقا هناك خلط بين النسب حسب العرق والإثنية وبين النسب حسب اللغة المنطوقة، لذلك نحن نفضل استخدام تسمية "القبائل الناطقة باللهجة الحسانية" لتفادي الوقوع في فخ التحيز لرأي دون الآخر، ونخصص هذا الجزء للقبائل التي تعيش بمنطقة تندوف أقصى الجنوب الغربي الجزائري.

من بين المعايير الاجتماعية والتي تبرز بقوة ولا يجب الإغفال عنها، داخل هذا النظام الاجتماعي، الاختلاط عبر الزواج(كبه، 1972، ص11)[1]، وانتقال أفراد الفئة الأقل مركزا اجتماعيا إلى

---

homme, descendant du Prophète-dit-on et qui s'installa, au début du 17 siècle, au sud du Wad Dar 'a, avec sa famille et quelques disciples . », Sophie Caratini, *Les Rgaybat,* Tome 2, *Territoire et société*, L'Harmattan, Paris, 1989, p. 9.

[1]. يرى بيار لاروك أن الأساس العام لكل التصنيفات القديمة هو المركز الذي يشغل في الحياة العامة، كالدور الحربي مثلا، بينما لم يحظى الدور الاقتصادي للفرد في كل العصور وفي كل الحضارات بأهمية متساوية في التصنيف الاجتماعي... ويعتبر أن السلوك النفسي والوجدان الجماعي يعبّر عن الفوارق في طراز المعيشة بفوارق في السلوك النفسي، ويترجم الانتساب إلى طبقة اجتماعية بطريقة تفكير، وباستجابات نفسية مشتركة تجاه بعض المشكلات، وبالأفكار المسبقة. كما أن لكل طبقة خرافاتها الاجتماعية وتقاليدها، ويترجم هذا الشعور الطبقي فعليا في عادة المعاشرة بين عناصر الزمرة الاجتماعية الواحدة، وفي الزواج من نفس الزمرة.

E-ISSN- 2773-2886 / ISSN-2773-2894

الفئات التي تعلوها، والعكس صحيح. فأفراد هذا المجتمع يدركون أهمية النسب والقرابة في تماسك وتضامن أفراد الزمرة الاجتماعية الواحدة. والزمر الاجتماعية المعروفة في هذا المجتمع هي حسب الترتيب التنازلي : الأسياد "البيظان"، العبيد "الرق"، الحرفيين والحدّادين "المعلمين أو الصنّاع".

وهناك تصنيف أو تقسيم آخر للطبقات، والذي يكون على أساس أصل القبيلة بما فيها من أسياد وعبيد وحدّادين، ويقال حسب الترتيب التنازلي : الشرفاء، العرب، "الدخيلة". وسندقق في شرح كل فئة على حدا اعتمادا على الملاحظة والمعايشة.

1.3. التفاوت في الزمر داخل القبيلة الواحدة :

وتنقسم كل قبيلة من القبائل الحسّانية المتواجدة بمنطقة تندوف إلى ثلاث طبقات متفاوتة حسب المكانة والسلوك الاجتماعي والدور، وهي كالآتي :

1.1.3. البيظان :

البيظاني(الحيسن، ص10)[1] هو بالمعنى الثقافي للكلمة، الشخص الذي يتقن اللهجة الحسّانية، فيقال "أَفْلاَنَ بيظاني مع راسُو"، بمعنى أنه استطاع أن يتقن بعض من مميزات الفرد الحسّاني، كأن يتكلم الحسّانية، أو يرتدي الزي الحسّاني، أمّا الفرد الذي لا يتقن اللهجة الحسّانية، يقال له "الشَلْح"، بمعنى فلان بربري اللغة أو التصرفات، إذن فعندما نأخذ الكلمة بهذا المعنى فالبيضاني هو الحسّاني، وقد يكون عبداً أو حراً أو مُعلَماً.

لكن بالنسبة لأصل الكلمة الإثني، فالبيظاني هو الفرد الأبيض، الحر والحسّاني، وفي هذا الصدد لا يفوتني أن أشير إلى ما جاء عن الباحث عماد المغيري، في مجلة "*إنسانيات*"(الميغري، 2006، ص61-79) ، فقد لا أشاطره الرأي فيما يخص مكونات المجتمع الموريتاني، حين فرق بين الحسّاني واللحمة والمعلمين والحراطين، فالمجتمع الحسّاني يضم كل الفئات بما فيها البيظان، لَمْعَلْمين، العبيد،

[1]. وهذا ما نجده لدى الباحث إبراهيم الحيسن حين قال "كان مصطلح البيضان شائعا في كتب الجغرافيين العرب منذ القرن الرابع الهجري لوصف صنهاجة الصحراء في مقابل شعب السودان الواقع جنوبا، ثم أصبح يطلق على الناطقين بالحسانية منذ القرن الحادي عشر الميلادي، لكنه كان مقصورا على النبلاء من العرب (المحاربون) والزوايا (أهل الخطط الدينية)، وكان اسم 'الكحلان' يطلق على الفئات الأخرى 'الحدادون' و'الزفانون' Les Griots (أرباب الموسيقة)، **ثم تطور لفظ البيضان ليطلق على كل متحدث للحسانية بغض النظر عن لونه ومهنته**، مع بقاء الاستخدام الأصلي في الإستعمالات الخاصة داخل نخبة المجتمع"، إبراهيم الحيسن، **ثقافة الصحراء : الحياة وطقوس العبور عند مجتمع البيضان**، مرجع سبق ذكره، ص 10.

E-ISSN- 2773-2886 / ISSN-2773-2894

الحراطين، واللحمة (الدخيلة)، بينما مجتمع البيظان، قد يضم كل هذه الفئات إذا ما أردنا التعبير عبر كلمة "بيظاني" عن الحسّاني، بينما قد تعبر الكلمة إثنياً عن العرق الأبيض العربي.

إذن إنّ طبقة البيظان تعني طبقة الأحرار، فهي الأعلى شأنا عن الطبقات الأخرى، لأنها هي من تملك كل أفراد الطبقات الأخرى، حسب معتقدهم، ولها كامل الصلاحيات في التصرف فيهم. فيقال للذكر "البيظاني"، وللأنثى "البيظانية"، بحيث تكون أصولهم عربية من عرق أبيض، معروفي الأجداد والشجرة العائلية. والمعروف عن البيظان أنهم من أصول حرة، لم يملكهم أحد من قبل، بل هم من يملك العبيد.

ويخدم العبد سيده البيظاني بأنشطة منزلية كالطهي والتنظيف، والمتعة الجنسية أحيانا. أمّا لَمْعَلَّمْ فدوره يكمن في صنع أدوات التزيين المنزلية ومعدّات الحرب، والملاحظ أن هذه المظاهر الاجتماعية لم تبق كممارسة، بل كاعتقاد فقط. فأصبحت هكذا كل طبقة حرة بحكم ظهور المجتمعات المدنية. لكن الارتباط المعنوي والخفي بين السيد وعبده ومعلمه مازال قائماً، ولا يزال الزواج من غير أفراد الطبقة الواحدة ممنوعاً منعا باتا، بل محرّما في بعض الأحيان.

وتعرف النساء "البيظانيات" بجمالهن الأخّاذ وبطول شعرهن وسواده العربي الأصيل ، كما تعرفن بنعومة أجسادهن ورطوبتن، وبياض بشرتهن، وبمشيتهن بتكبر وكبرياء وجمال لباسهن كذلك .

2.1.3. العبيد :

وهم فئة الرق، والعبد هو من يشتريه السيد أو يحصل عليه من خلال الحروب مع القبائل الأخرى. ويسمى الذكر في المجتمع الحسّاني "عبداً"، والأنثى "الخادم" أو "الجارية"، وكما ذكرنا سابقا فدور العبيد يكمن في خدمة "البيظان". فالعبد يأتي بالغذاء والحطب ويحمل كل ما هو ثقيل بالنسبة للسيد، بينما تتكلف "الخادم" بالطهي والتنظيف، بالإضافة إلى خدمة السيد في حالة ما أراد التمتّع جنسيا بها أو الإنجاب. وبإمكان ابن الجارية أن يصبح سيدا إذا أراد السيد ذلك، أمّا في حالة الرفض فسيبقى عبدا مملوكا لا حول له ولا قوة.

والملاحظ أن هذه العبودية تلاشت خلال العقود الأخيرة ، مع الإشارة إلى أنّ العبد مازال عبدا كاعتقاد، يمنع عليه الزواج من "البيظانية" إلاّ في حالات استثنائية تتعلق بتحريره. ولا يمكن أن يستفيد من ذلك إلا من كان من أب "بيظاني" وأم "جارية".

وتعرف "الخادم" عادة بسواد بشرتها وكبر أنفها، وشعرها المجعّد، وخشونة جسدها وبشرتها.

3.1.3. المعلمين :

ولَمْعَلْمين هم طبقة الحرفيين والفنّانين والصنّاع، وأكثر ما يميّز هذه الطبقة هو أن أجدادهم الأولين كانوا حدّادين، وهم الفئة الأدنى شأنا واعتبارا في المجتمع الحسّاني. ويرجع هذا النبذ لهذه الطبقة إلى اعتقاد سائد مفاده أن الرسول صلّى الله عليه وسلم يكون قد لعن الحدّاد، مما جعل هذه المجموعة من الحدّادين منبوذة، مع أنه من المعروف أن سيدنا داوود عليه السلام كان حدّادا وهو نبي، وجاء في القرآن الكريم : بسم الله الرحمان الرحيم

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾[1]،

والآية ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاء مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[2] .

فكيف لهذه المجموعات أن تنبذ كافة الحدّادين أو الأفراد الذين تنحدر أصولهم من أجداد حدّادين ؟ ومن المعروف أنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم لم يلعن في حياته أحدا مهما كان نوع خطئه. ونتساءل، من جهتنا، عن خلفية هذا النبذ، الذي قد تكون لغرض سياسي هدفه إبقاء هذه الفئة مهمشة، مع أنها تملك الصنعة والإبداع والفن بما تحمل هذه الكلمة من معنى، هذه الصناعة التي أقيمت من أجلها ثورة في دول آروبا بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

وتعرف نساء فئة لَمْعَلْمِين بجمالهن الأخّاذ وسمرتهن الجذابة، وأجسادهنّ المرسومة بشكل يثير القريب والبعيد. ويكمن السر في بقاء هذا الجمال وشكله الخاص في الزواج الداخلي، فالمعلمة لا تتزوج إلاّ من معلم ، لأن زواجها بفرد من الفئات الآخرى مستحيل المنال بل ممنوع.

وما نلاحظه أنّ هذه الفئة موجودة ومعروفة بهذا الشكل في المجتمعات الحسّانية فقط، مما يميزها عن غيرها من المجتمعات العربية الإسلامية الأخرى.

والغريب أنه عند محاولة الاقتراب من أحد المسنين من الفئات الأخرى، فإنك لا تحصل على مبرر لهذا التهميش والإقصاء القاسي لهذه الفئة، بل فقط أنها مسألة ورثت على الأجداد ولا يمكن تغييرها، وإلاّ نزل السخط والعقاب الإلهي.

والمعلوم أن الجارية يمكنها الإنجاب من سيّدها، كما أنّ لولدها الأمل في أن يصبح حرا، لأن القرآن الكريم جاء بتحرير الرقبات والعبيد. ولا يمكن للمعلمة، ممارسة وتمثلا أن تقترب من السيد، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وإلاّ تنزل عليه اللعنة السماوية.

1. سورة سبأ، الآية 10.
2. سورة سبأ، الآية 13.

2.3. الزمر حسب الانتماء إلى القبيلة :

هناك تقسيم طبقي فئوي من نوع آخر، فبينما كان الأول داخل القبيلة وداخل البيت الواحد، فإن هذا التقسيم يكون على حساب الإنتماء إلى قبائل دون الأخرى، ويكون على أساس قدم القبيلة وعدد أفرادها واستقلاليتها، وهي كالآتي:

1.2.3. الشرفاء :

وهم النبلاء والذين ينحدرون من شجرة الرسول صلى الله عليه وسلّم، ويكون بالطبع الزواج داخلي، فالرجل الشريف لا يتزوج إلاّ من امرأة شريفة، وفي حالات ناذرة يمكنه أن يتزوج بامرأة عربية أصيلة معروفة الأجداد والأصول. والنبلاء معروفون بطبائع حسنة، متدينون، محافظون، والأماكن التي يتواجدون بها هي أماكن مقدّسة يستحسن زيارتها والتبرّك بها، والمتعدّي عليها يوعد بعقاب إلهي أكيد. هذا ما يعرف عن الشرفاء في المجتمع الحسّاني، ويقال باللهجة الحسّانية "فلان شريف" أي مسالم ومؤدب، والتعدي عليه يؤدي صاحبه إلى الهلاك.

2.2.3. العرب :

يقال أنها كل القبائل التي تنحدر أصولها من الجزيرة العربية واليمن، ومنهم قبيلتي الرقيبات وتجكانت، وهي القبائل المعروفة من ناحية قوتها وتاريخها، ولا تنتمي تاريخيا إلى أي قبائل آخري، لأن شجرتهم العائلية معروفة من الجد الأول إلى الجد الأخير، حسب اعتقادهم، وهي القبائل التي تدخل في حمايتها القبائل التي سنذكرها لاحقا، بحيث أنّ انتماء هذه القبائل لها يزيدها قوة وشأنا وعظمة بين القبائل الأخرى. وتعرف هذه القبائل العربية بتاريخها الحربي وتجارتها المحلية والخارجية.

3.2.3. الدخيلة :

الدخيلة هي القبائل التي عرف عنها تاريخيا أنها دخلت على القبائل العربية الكبرى وانضمت لها، بطلب رسمي ومعلن على الرغبة في الانضمام إلى قبيلة ما. ويقال حسب الحكايات الشفوية أن انضمام هذه القبائل الدخيلة يكون بسبب إمّا أنّ هذه القبيلة ضعيفة القوة وقليلة العدد، وذلك يكون في الغالب نتيجة تعرضها لغزو من طرف قبائل أخرى، أو أنها قبيلة من جد غير معروف، فيقال باللهجة الحسّانية "فلان ألاّ لَحْمَة"، بمعنى أن هذا الشخص ليس سوى لحما،أي أنه غير معروف الأصل والدم، وهذا ما يضعف شأنه وأصله، لأنه مجهول الأصل، لذلك تعتبر القبائل الدخيلة في معظمها قبائل غير معروفة الأجداد والأصول، فيكون الحل الأمثل هو الانضمام إلى قبائل عربية معروفة بالشرف والعفة والقوة.

E-ISSN- 2773-2886 / ISSN-2773-2894

لكن الجميع يجهل سبب وضع هذا القانون التعسّفي في حق هذه الفئات، وكأنه جاء نتيجة تراكمات اجتماعية نجهلها، فالطبقات في المجتمع الحسّاني شيء تعسّفي افتراضي.

والدليل على ذلك يكون بمقارنة المساواتية النظرية في الإسلام وواقع التفاوتات الفئوية والطبقية. فالإشارة إلى القيم والمعايير متفاوتة، أي أنّ دور الدين مهم في تسيير شؤون المجموعات البشرية، لكن ليس لوحده، بل تدخل القيم الناتجة عن العادات والتقاليد والمعتقدات الشعبية، هذه القيم التي من الصعب فهمها والتحكم فيها. والمثال واضح وأكيد، فرغم محاولة مجموعات مثقفة حسّانية تجاوز هذه التفاوتات الطبقية لم تفلح، لأنها في الواقع لم تتجاوز هذه الاعتقادات المتجذرة عبر التراكمات الاجتماعية المترسخة من جهة، والمجهولة المصدر من جهة أخرى.

ويصعب التمييز بين الطبقات والزمر الإجتماعية في المجتمعات البدائية التي تقوم على أساس القرابة أو القبيلة، كما أنه من الصعب كذلك التعرف أو الوقوف على العوامل الأساسية التي يتم وفقها هذا التمييز والتفاوت. ومن أقدم أنواع التمييز التي كانت بين الأحرار والعبيد ما عرف في المجتمع المدروس، والذي لم نجد له تفسيرا واضحا وأكيدا هو وجود فئة المعلمين التي تأتي في آخر سلم الترتيب بعد العبيد.

ومن بين العوامل السياسية التي تعزز هذا التفاوت والتمييز عامل الدفاع والحماية. فمما لاحظناه من خلال التفاوتات حسب الانتماء إلى القبائل أن القبيلة القوية والكثيرة العدد والعدّة هي القادرة على الدفاع وحماية القبائل الضعيفة ، وهي الأولى بالحكم والسيادة في مقابل ولاء القبائل التي تنضمّ إليها طواعية واعترافا بالجميل. نضيف إلى ذلك العامل الاقتصادي الذي يتمثل في التمييز بين الفئات حسب امتلاكها الأراضي وسيطرتها عليها، إمّا عن طريق الحروب، أو باعتبارها الأولى التي دخلت هذه الأراضي، مما يجعل الفئات الأخرى ملزمة بالخضوع لها والدخول تحت رحمتها.

ورغم تطور حقوق الإنسان والمؤسسات القانونية التي تمنع هذه التمييزات والتفاوتات وتلغي العنصرية، فإن هذه المجتمعات المنغلقة نسبيا لم تستطع تجاوز هذا التمييز دفعة واحدة. بل بدأت تتأقلم مع هذه الأوضاع القانونية والاجتماعية الحديثة بالتدرج وبشكل بطيء غير محسوس إلاّ عبر المقارنة البعيدة الأمد.

الخاتمة

اعتمدت المجموعات البشرية ذات الأصول العربية، كما تدعي، المستوطنة بالصحراء الإفريقية على نشر العربية والإسلام بالإضافة إلى التجارة والحروب للسيطرة على هذا المجال، وهذا ما يمكن أن نلاحظه في وقتنا الراهن من خلال التنوع اللغوي والممارساتي والطقوسي للمجموعات التي

E-ISSN- 2773-2886 / ISSN-2773-2894

تنتمي إلى هذا الفضاء الشاسع والمتنوع. لكن الباحث المتمعن والمتفحص للهجات المستعملة يمكنه بسهولة الوقوف على تداخل اللهجة الأمازيغية مع العربية، هذا الأخير (أي التداخل) هو الذي يعطينا هذا التنوع اللهجي، بالرغم من إدعاء هذه القبائل عروبة ألسنتهم وأصولهم.

لاحظنا مما سبق أنه يصعب على الباحث أن يقارب موضوع اللهجات بسبب تداخل عدة عوامل نذكر من بينها :

- تداخل التنوع العرقي والتنوع اللهجي مما يصعب علينا تحديد مدى تأثير احد العوامل على الآخر
- صعوبة مقاربة روايات الأصول لأنها تعتمد، في معظمها، على الشفوية
- قلة الكتابات التي تؤرق الباحث المهتم بهذا المجال
- تداخل التخصصات والمناهج المعتمدة لمقاربة موضوع اللهجات بين العلوم الإنسانية، اللسانيات، الأنثروبولوجية التاريخية والثقافية والإجتماعية.

قائمة المراجع والمصادر:

المراجع باللغة العربية :

- الحيسن، إبراهيم. (2011). **ثقافة الصحراء : الحياة وطقوس العبور عند مجتمع البيضان**. دار أبي رقراق للطباعة والنشر. الرباط.
- بونت، بيار. (2015). **روايات أصول المجتمعات البيظانية : مساهمة في دراسة ماضي غرب الصحراء**. (ترجمة، محمد بن بوعليبة بن الغراب). دار النشر جسور. نواكشوط. موريتانيا.
- هباد، حمادي وسويدي تمكليت. (2013). **اللسان الحساني بمجال الصحراء : معالجات تأثيلية ولسانية**. ط1. مركز الدراسات والأبحاث "مشاريع" مراكش.
- النحوي، خليل. **جمعية الثقافة والعلوم الإسلامية**، تحصلنا على نسخة من هذا النص من طرف الشيخ الطاهر لحبيب، بتندوف، سنة 2004.

- مارشزين، فيليب. (2014). القبائل، الإثنيات والسلطة في موريتانيا. (ترجمة، محمد بوعليبه بن الغراب). دار النشر الجسور. نواكشوط. موريتانيا.
- الميغري، عماد.(2006). **"المسألة الإثنية والدولة في موريتانيا وانعكاسها على الخصوبة والسلوك الإنجابي للأقليات"**. *إنسانيات*، عدد مزدوج 32-33. ص 61-79.
- محمدن أمين، محمدو. (2016). **وثائق من التاريخ البيضاني (نصوص فرنسية غير منشورة : ترجمة وتحقيق وتعليق)**. دار أبي رقراق للطباعة والنشر. الرباط.
- أرجدال (بويزكران)، محمد. "التواصل الثقافي الأمازيغي الحساني". (15/04/2004) http://tawiza.net.
- الكتاب، مصطفى. (1999). **لمبيديع**. ط1. دار المختار. دمشق.
- حسام الدين، كريم زكي. (2001). اللغة والثقافة العربية. ط2. دار غريب للطباعة والنشر. القاهرة.

المصادر :

- الأنصاري، صالح بن عبد الوهاب. **سلسلة الحسوة البيسانية**. (تحقيق: أحمد بن محفوظ). (رسالة مرقونة).
- ولد أباه، محمد المختار. (2003). **الشعر والشعراء في موريتانيا**. ط2. دار الأمان. الرباط.

المراجع باللغة الفرنسية :

- Bonte, Pierre et autres. (1991). *AL ANSAB : la quête des origines, Anthropologie historique de la société tribale arabe*. MSH. Paris. 1991.
- Bonte, Pierre. (1994). *Epouser au plus proche : Inceste, prohibitions et stratégies matrimoniales autour de la Méditerranée*, Editions de L'Ecole des Hautes Etudes En Sciences Sociales. Paris.
- Caratini, Sophie. (1989). *Les Rgaybat,* Tome 2. *Territoire et société*. L'Harmattan. Paris.